جماليات التكرار في شعر ابن زمرك " شاعر الحمراء "

الدكتور: عبد اللطيف حني
قسم اللغة العربية، وآدابها
المركز الجامعي بالطارف

الملخـــص:

يسعى هذا المقال إلى الوقوف على ظاهرة أسلوبية لها أثرها فـــي نقـــل الأفكار وإبراز المعاني، ألا وهي التكرار بوصفه آلية وأداة في يـــد المبـــدع يتواصل بها مع المتلقي، محاولين كشفه في ديوان شاعر الحمراء ابن زمرك أحد أعظم شعراء بلاط دولة بني الأحمر في الأندلس، لمـــا عكســـه نتاجـــه الشعري من كفاءته في تصريف المعاني، وقدرته على تكييـــف الأســـاليب، مما جعله غنيا بالجماليات الفنية والظواهر الأسلوبية، ومن أهمهـــا التكـــرار الذي اعتمد عليه شاعرنا في عـــرض موضـــوعات المـــدح والاســـتعطاف والاعتذار والوصف والغزل.

أولا: مفهوم التكرار ووظيفته:

يُعَدُ التكرار وسيلة تعبيرية وأسلوبية للإلحاح على الفكـــرة وتوكيـــدها، وهذا الهدف كامن وراء كل تكرار نلمسه في الخطاب الشـــعري، فـــالتكرار يركز على نقطة معينة في العبارة ويحاول اســـتنطاقها مـــن خـــلال كثـــرة مساءلتها ومحادثتها، كما أنه يكشف عن اهتمام المتكلم بها ومدى شدة انتباهه له، وبهذا المفهوم فالتكرار ذو دلالة نفسية قيمة[1]، عندما يرتبط بكفاءة وقدرة الشاعر الفنية، فلا يفهم من التكرار حلية لفظية وتوشـــيح شـــعري واحتفـــاء تزييني بالنص بل هو آلية وتقنية تحتاج إلى خبـــرة ودرايـــة « إذ أن اللفـــظ المكرر ينبغي أن يكون وثيق الارتباط بالمعنى العام، والتكرار هو ذكر الشيء مرتين فصاعدًا ولهذا نستطيع أن نضع التكرار في باب الإطناب»[2].

وعلى هذا الأساس نظرت البلاغة العربية للتكرار من زاويـــة التوكيـــد وعدّته آلية لتوكيد المعاني وترسيخ الفكرة لدى المتلقي، وشدّ انتباهه لقضـــية معنوية معينة يهدف إليها النص، «فمن سُـــنن العـــرب التكريـــر والإعـــادة، والغرض منه إرادة الإبلاغ بحسب العناية بالأمر»[3] غير أنّ بعضـــهم عـــدّه عيبًا من عيوب الكتابة إذا حدث في اللفظ والمعنى فإنه يكون مُملا لا يـــأتي بجديد، فيجب أن «يقع في الألفاظ دون المعاني، فإذا تكـــرر اللفـــظ والمعنـــى جميعًا فذلك الخذلان بعينه»[4].

ويُعتَبرُ التكرار أحد أهم الأساليب التعبيرية التي تُعين النّاص على تأكيـــد كلامه والتركيز على أفكاره، وقد كثُر توظيفه في النص القرآنـــي والحـــديث النبوي الشريف بشكل لافت للانتباه، مما دعـــا البلاغيـــين واللغـــويين إلـــى الوقوف عنده باعتباره ظاهرة أسلوبية لها دلالاتها فـــي المعنـــى، وحـــاولوا

التفصيل فيه من حيث أشكاله وأنواعه وصوره التي يأتي عليها مـــع إيـــراد لأثرها في بناء المعنى العام، كما اعتبر بها المفسرون في استنباط الأحكـــام الشرعية، واستشهدوا بالتكرار بوصفه أداء لغويا له مقصد في الكلام.

ويُصَنّفُ التكرار من الأدوات الأسلوبية والآليات الفنية التي باســـتطاعتها كشف أغوار النص، وبواسطتها نتعمق في ما وراء ذاته واستجلاء مختلـــف الأحاسيس والمشاعر الخبيئة في ذات المبدع «إنه إحـــدى المرايـــا العاكســـة لكثافة الشعور المتراكم زمنيا عند الذات المبدعة، يتجمع في بـــؤرة واحـــدة ليؤدي أغراضا عديدة»[5].

والحقيقة أن التكرار أسلوب يتحصن بمختلف القدرات التعبيرية التي مـــن شأنها توافرها في أي أسلوب تعبيري آخر، فهو«يُغْني المعنى ويرفعـــه إلـــى مرتبة الأصالة »[6] التي تزيد قوته وتترسخ في فكر المتلقـــي، كمـــا يعمـــل التكرار على «إثراء العاطفة ورفع درجة تأثيرها، وتركيز الإيقاع وتكثيـــف حركة التردد الصوتي في القصيدة»[7]مما يَمْنَحُها ثقلا معنويا، وأداء متميـــزا مشحونا بالعمق والتوالد الفكري، وعليه« فالتكرار لا يكون زيادة ما دام لحكمه كتقرير المعنى، أو خطاب السَّاهي، كما أن ترداد الألفاظ ليس بعيّ ما لم يجاوز مقدار الحاجة »[8].

والتكرار باعتباره ظاهرة فنية ليس وليد القصيدة الحديثة بل عُرفَ عنـــد القدماء، فقد وظفوه في نظمهم ونثرهم واستخدموا جلّ أشكاله وأنواعه التـــي منها الوزن والقافية والبيت، ولعلّ القصيدة الحديثة استحدثت أشكالا إضـــافية جديدة من خلال تعاملها مع مستجدات عصرها، وارتكزت على التكرار كبنية تعبيرية تفضي بواسطته كثيرا من أسرارها، وتفصح به عـــن العديـــد مـــن

مقولاتها «ولعل التكرار هو البنية الأكثر دورانا في شعر الحداثة عامة، وقـد تستغرق أحيانا النص الشعري بكامله »[9].

ثانيا: ابن زمرك شاعر الحمراء:

عَرَفَت بلاد الأندلس عدّة حضـارات حملهـا إليهـا العـرب وغيـرهم، فازدهرت بالمعالم الحضارية والثقافية وشهدت تطورا مذهلا، وكانت غرناطة من أوفر المدن حظا لوجود هذه المعـالم بهـا ولطبيعـة موقعهـا المميّـز والاستراتيجي، وفي هذه الظروف نشأت دولة بني الأحمر سنة 637 هـ، حيث ازدهر فيها الأدب لاستقرار الأوضاع وشيوع الأمن والرخـاء فيهـا، مما أدى إلى ظهور كثير من الشعراء أبرزهم شاعرنا ابن زمرك الذي ولـد سنة 733هـ -1333م « بربض البيازين الواقع في الناحية الشمالية الغربية من غرناطة تجاه الحمراء، وكان اسمه محمد بن يوسف بن محمد بن أحمـد بن محمد الصّريحي، وكنيته أبو عبد الله والمعروف بابن زَمرك أو زُمـرك بفتح الزاي أو ضمها»[10].

نشأ شاعرنا في عائلة فقيرة سُلبَت أموالها جراء الحرب بـين المسـلمين والمسيحيّين، واتجه إلى الدراسة فتفرد بموهبته وعلمه وذكائـه فـي شـتى العلوم، واستفاد كثيرا من الحراك العلمي آنذاك، حيث تردد على العديد مـن الشيوخ والمعلمين، وتنقل بين المدن الأندلسية وسافر إلى المغرب لظـروف سياسية، لازم ملوك بني الأحمر وعيّنه السلطان الغني بالله وزيـرا، وكـان صديقا مقربا إليه، ونتيجة امتهانه السياسة كان له أعداء يكيدون له « فهلـك في جنح الليل في جوف داره على يد مخدومه، تلقاه عند الدخول عليه وهـو بالمصحف رافع يديه فجدلته السيوف وتناولته الحتوف فقضـى عليـه أمـام

مرأى أهله وعياله، فكانت أنكى الفجائع وأفظع الوقائع وقد تـــم ذلـــك عـــام 795هـــ»[11].

عُرفَ ابن زمرك بذكائه وحنكته، ولم يكن مُجرد وزير فـــي دولـــة بنـــي الأحمر في ظل الحكم النصري تحت إمرة الغني بالله، بل تميز بالشـــاعرية، فأتقن النّظم وفن الموشحات، وأبدع شعرا في كل الأغراض مَحْســـنًا ومُتْقنًـــا فتمايلت لنغمات قوافيه قصور الحمراء وانفتحت أمامه أبوابها، فـــتمكن مـــن قلوب مُعجبيه وسلب لُبّهم وخاصة الملك الغرناطي الـــذي لا يفارقـــه أبـــدا، فخُلدَت أشْعَارُه على أبواب القصور نَقْشًا، وزينت بها الساحات والدور العامة «وهذا ما أدى بالمستشرق غارثيه غومات إلى تسمية ابن زمـــرك بشـــاعر الحمراء »[12].

ثالثا: مظاهر التكرار في شعر ابن زمرك:

استَعَان ابن زمرك بالتكرار لتحقيق أغراض كثيرة منها لفت انتباه المتلقي وشدّه إلى عالم القصيدة، وإظهار المعنى وتقريره في النفس، والتـــأثير علـــى المخاطب في أغراض الاستعطاف العتاب، كما ساعده على ضـــبط الإيقـــاع الداخلي للنص على مستوى معمار البيت الشعري، وتفادي المَلَل الـــذي قـــد تُحدثه رتابة الإيقاع الخارجي، وقد تجلّى التكرار في شعر ابن زمـــرك مـــن خلال الملامح الآتية :

1- الاسم الموصول:

حَاوَل الشاعر من خلال تكرار الاسم الموصول نقل المتلقي إلـــى عالمـــه الشعري ودَمجه في صميم تجربته الشعرية ورسم ما يدور في نفسه[13] حيث يمثل الاسم الموصول "ما" التعبير عن معاني الانعتاق للكمال والجمال الـــذي

يطمح له والمتخيل عنده، وهذا ما نلحظه، وهـــو يســـتعطف الســـلطان أبـــا الحجاج[14]، حيث يقول : [15]

بِمَاْ قَدْ حُزْتَ منْ كَرَم الْخلالِ بِمَا أَدْرَكْتَ مِنْ رُتَب الْجَلالِ
بِمَا خوّلتَ مِنْ دِينٍ وَدُنْيَـــا بِمَا حُزْتَ مِنْ شَرَف الجَمَالْ
بِمَاْ أَوْلَيْتَ منْ صُنْعٍ جَمَيْـلِ يُطَابِقُ لَفْظُهُ مَعْنَى الْكَـمَـالِ
تَغَمّدْني بِفَضْلِكَ وَاغْتَفِـرْهَا ذُنُوبًا فيْ الفِعَالِ وَفي المَقَـالْ

لقد وظف ابن زمرك الاسم الموصول "ما" واعتمد على تكـراره للدلالـة على حاجته التي يُلح عليها، مُدخلاً عليه حرف الجر"الباء" للاستغاثة وتبيـان الضعف الذي لحقه، حيث افتتح القصيدة بـ "بما" مُعـددا فضـائل ومكـارم السلطان التي رحبت الأرض وفاقت الخيال، ليخلص في الأخير إلى الهـدف المَرجُو المُتمثل في العفو والغفران بواسطة "تَغَمَدني" التـي تُوضـح حاجـة الشاعر إلى عطف ممدوحه ورأفته به، وقد تحقـق ذلـك بواسـطة الاسـم الموصول وصلته.

لاشَكَ أن هذا التكرار جعل المتلقي يرسم في خياله صورة جميلة متكاملـة تتشكل من كل معاني الجمال والقوة والسيطرة التي يمتلكها هـذا السـلطان، وبذلك استغل ابن زمرك هذه الإيجابية لصالحه واعتبره مَدخَلاً لاستمالة قلب السلطان حتى يعفو عنه وقد روّض هذه المعاني والأفكار بواسـطة الاسـم الموصول.

2- أسلوب النداء:

يُعدّ النداء من الأساليب الإنشائية ويقصد به طلب المتكلم إقبال المخاطب عليه بحرف من حروف النداء، محلّ الفعل المضارع "أنادي" المنقـول مـن

الخبر إلى الإنشاء محله، وقد حذف حرف النداء، إذا فهم من الكلام، يزخـــر النداء بالحراك اللّغوي في بُعده الوظيفي، فإذا كان الخبر يُجَســـدُ اللّغـــة فـــي جانبها القار، ومضمونه يحتمل الصدق والكذب لذاته فإن الإنشاء يمثل جانبها المتحرك [16].

كما يُعْتَبَرُ النداء من الأساليب الإنشائية الهامة فـــي الخطـــاب الأدبـــي، لدلالته البلاغية ومساهمته الفعّالة في تكثيف المعنى ونقله، وإحداث حركيـــة وديناميكية في النص تهدف إلى جلب انتباه المتلقي، وإحداث التفاعـــل معـــه، وأسر حواسه لنقل المعاني والأفكار.

وقد استَعَان ابن زمرك بتكرار النـــداء فـــي أغـــراض المـــدح الفخـــر والاستعطاف، خاصة تكرار الممدوح الذي جعله محورا تدور عليه معـــاني القصيدة، بُغْيَة التنويه به والإشادة بذكره وتفخيما لمكانته وإشاعة اسمه وجاهه في القلوب والأسماع والعقول، ويظهر ذلك في مدح الغني بـــالله[17]، حيـــث يقول: [18]

يَاْ ابْنَ الإمَامِ ابْنَ الإمَامِ ابْنَ الإمَا مِ ابْنَ الإمَامِ وَقَدْرُهَا لاْ يُجْهَلُ

يَبدُو أنّ الشاعر من خلال التكرار الحاصل في البيـــت الشـــعري علـــى مستوى عبارة "ابن الإمام" يؤكد على أولوية الغني بـــالله للخلافـــة وأحقيتـــه بإمامة المسلمين، وقد أضاف التكرار مجموعة من القيّم للسلطان فرفع مـــن شأنه، وعظّم منزلته، وأكّد على شرعية حكمه لأنّه ابن إمام وجده إمام ابـــن إمام، فالسلطان سليل عائلة حاكمة.

ويُفضّل ابن زمرك تكرار النداء في التغزل بحبيبته، حيث يهيم بوصـــف جمالها الذي أذهل كل من رآه، فلا يستطيع أي إنسان أن يتجاهله إذا مرّ به، حيث يقول: [19]

يَا مَطْلَـــعَ الأَنْـــوَارِ كَمْ فِيْكَ مِنْ مَرْأَى جَمِيْل
وَ يَاْ نُزْهَـــةَ الأَبْصَارِ مَاْ ضَرّ لَوْ تُشْفِى الْغَلِيْل
يَاْ رَوْضَـــةَ الأَزْهَـارِ وَعُرْفَهَا يُبْرِي الْعَلِيْـــل

يُظْهِرُ ابن زمرك في الأبيات السابقة انبهاره وإعجابه بجمال حبيبته، مـــن خلال التكرار الحاصل في آداة النداء "يـــا" المتصدرة مطلع الأبيات الثلاث، حيث بيّن لنا انبهاره بجمالها الفتان في صـــورة شـــعرية متكاملـــة، وهـــذا ما تُظْهِرُهُ الاستعارات المتتالية الدالة على اضطراب حالته النفســـية، فكـــان التكرار الواصف المشخص لحالته.

3- أسلـــوب الشـــرط :

الشرط كل حكم معلوم يتعلق بأمر يقع بوقوعه، فيتحقق الأمر بتحقق أمر آخر، والتركيب الشرطي تركيب عربي يتكون من جملتين في الأصل، جملة الشرط وجملة جواب الشرط والجزاء، أو ارتباط الغاية بالوسيلة، أو ارتبـــاط العلة بالمعلول[20]، ولا يكون ذلك إلا بواسطة أدوات تتباين محالّها الإعرابية بحسب طبيعتها النّحوية، وكذلك استعمالاتها البلاغية التي تظهر فـــي مقـــام الديوان[21].

وبذلك يكون أسلُوب الشرط يعتمد على أسباب للوصول في النهايـــة إلـــى نتائج متوقعة، فهو أسلُوب يَميل إلى العقل والتداول المنطقي، وقد وظّفه ابـــن زمرك في شعره للإقناع وتحقيق ما في نفسه من معان، خاصة في صـــيغة

التكرار التي زادت من فعالية الشرط وجعلته يتحلى بقيمة حجَاجية وتأكيديـــة صارمة، ويظهر في تعبير الشاعر عن حزنه الشديد لفقد السلطان الغني بالله، فلم يجد من الأساليب مطواعا سوى أسلوب الشرط لما فيه من فُسحة للبـــوح بما يكنه لسلطانه، حيث يقول: [22]

لَئِن غَرَبَ الْبَدْرُ المُنِـــيرُ مُحَمَـــدُ لَقَد طَلَعَ البَدْرُ الْمُكَمَـــلُ يُوْسُـــفُ
وَإِنْ رَدّ سَيْفُ المُلْكِ صَـــــوْتًا لِغِمْدِهِ فَقَدْ سَلّ مِنْ غِمْدِ الخِلافَةِ مُرَهّفُ
وَإِنْ طَوَتْ الْبرد الْيَمَانِي يَـــــدُ الْبَلَى فَقَدْ نَشَرَ الْبرد الجَدَيـــد الْمُفَـــوَفُ
وَإِنْ نَضَبَ الْوَادِيْ وَجَـــــفّ مَعِيْنُـــهُ فَقَدْ فَاْضَ بَحْرٌ بِالْجَوَاهِرِ يَقِـــذِفُ
وَإِنْ صَوحَ الْرَوْضُ الذّيْ ينْبُت الغِنَى فَقَدْ أَنْبَتَ الْرّوْضُ الْذّي هُوَ يَخْلُفُ
وَإِنْ أَقْلَعَتْ سُحُبُ الْحَيَـــاْ وَتَقَشّعَـــتْ فَقَدْ نَشَأَتْ مِنْهَا غَمَـــائِمٌ وَ كُـــفٌ
وَإِنْ صَدَعَ السَّمْلَ الْجَمِيعَ يدُ النَّـــوَى بِيُوسُفَ فَخْر المنـــتدِي يتأَلّـــف
وإِنْ رَاع قَلب الدِّين نَـــعْيُ إِمـــامِـــهِ فقد هُزَّ منهُ بالبشَـــارةِ مَعْطـــفُ

لَجَأ ابن زمرك لتكرار أسلوب الشرط (لئن غَرَبَ، إن رَد، وإن طَـــوت، إن نضب، إن أقلعت...) ليأتي بالأدلة والبراهين على ازدهار ورشـــد حكـــم سلطانه الذي لم يشهد مثله زمانا ومكانا، ولا يستطيع أحد أن يتمثله، « وهـــو يقيد الفعل بالشرط و"إن" هـــي حـــرف شـــرط للاســـتقبال، وقـــد تســـتخدم للتفاؤل»[23].

يَبْدُو أنّ نَغَم التفاؤل يتردد إلى جانب نَغَم الحزن في أبيات ابن زمـــرك من خلال تكرار أسلوب الشرط، وخاصة في الجواب الذي تصدرته " قـــد " المقرونة بفاء الربط "فقد"، فالشاعر يُعزي نفسه بأن سلطانه عظيم في حياتـــه بإنجازاته وحكمه الراشد، وعظيم في مماته بأن وَرّثَ مُلْكَهُ لخليفـــة صـــالح

وقادر على الارتقاء بهذا المجد والمحافظة على الدولـــة وحمايـــة أركانهـــا والتكفل بأعبائها، كلّ هذه المعاني وأخرى صاغها لنّا ابن زمرك بواسطة آلية التكرار الذي أظهر حُزنه العميق على فقده، وفـــي المقابـــل أظهـــر تفاؤلـــه المستبشر بمواصلة عهد سلطانه من طرف ولي عهده.

وحين يَصفُ ابن زمرك شجاعة وإقدام فرسان الســـلطان المقتحمـــين ساحات الوغى غير مبالين بالمخاطر، يُفعّل شاعرنا أسلوب الشرط بـــــ "إنْ" وذلك بذكرها تارة صريحة وإضمارها تارة أخرى، محاولاً التوكيـــد علـــى خصالهم وشمائلهم الحربية وحماستهم في التضحية لأجل هدفهم، مما يجعلهم يتحدّون الموت، ويلاقونه بترحاب دون خوف أو ذّعـــر يقينـــا مـــنهم أنهـــم الفائزون بإحدى الحُسنيين، إمّا النّصر أو الشّهادة في سبيل الله، فيقول:[24]

أَسَادُ مَلحَمَةٍ إِذَا كُلّ مُشَـــمَـــــرٍ دَخَلُوا مِنْ الأسَل الْمُثَقف غَيْـــلا
إِنْ شَمّرُوا يَوْمَ الحُرُوبِ ذُيُولَهُمْ سَحَبُوا مِنْ الزّرْد الْمُفَاضِ ذُبُوْلا
أَوْ قَصَرُوا يَوْمَ الطِعَان رِمَاحَهُمْ وَصَلُوا بِهَا الخَطْوَ الْوسَاع طَوِيْلا

كما يَستعين شاعرنا بتكرار أداة أخرى للشرط تؤدي المعـــاني نفســـها، وتهدف إلى مدح الغني بالله بالشجاعة والإقدام، حيث يقول:[25]

إِذَاْ أَنْتَ لَمْ تَزجِ الْجُنُودَ إِلىْ الْعُلا فَإِنّ جُنُودَ الله عَنْكَ تُقَاتِـــلُ
وَإِذَاْ لَمْ تُقَوّمهَا سِهَامًا مُرَيّشَـــــةً إِنّ سِهَامَ الله عَنْكَ تُنَاْضِـــلُ
تُرَيّشُ لَكَ الأَقْدَارُ أَسْهُمَ أَسْـــعُـــدٍ تُصَابُ بِهَا لِلْدّار عَيْن مُقَاتِل

اعتمد شاعرنا في المقطوعة على تكرار "إذا" التي أفادت ارتباط نجـــاح قدرة السلطان في الحرب بالتأييد من الله تعالى والنصرة من ملائكته، وهـــذا لمكانته وعدل حكمه وأحقية ولايته، فالشاعر استفاد مـــن القـــدرة التعبيريـــة

لأسلوب الشرط في ربطه الأسباب بالمسببات، وفَعّلَ من كفاءتــه بواســطة التكرار الذي ركّز على الفكرة وأكّدها وساقها جليّة طيّعة للمتلقــي، لتُشــكل الصورة الواضحة المكتملة للسلطان في مخيّلته، وهــي أن السّــعي الحميــد والجليل للغني بالله في سبيل إعلاء كلمته والتَمْكين لدينه، عَمل يُماثل جهــاد النّبيﷺ، لذلك فالله تعالى ينصرُ من يَنْصُره، فيُؤيد جُيوشه ويُعزز قوته ويُثبت ملكه عند الضرورة ليعلم الأعداء أن قوة الله هي العليا دوما.

4-الاستفهــام:

الاستفهام من أبرز الأساليب الإنشائية الطلبية[26]، ويُقصد به طلب العلم بشيء لم يكن معلوما من قبل[27]، أو مطلوبا غير حاصل وقت الطلب[28].

أَحسَنَ ابن زمرك توظيف الاستفهام بمختلف أدواته المتنوعــة، والتــي تخرج إلى أغراض بلاغية متعددة تُستَفاد من سياق الكلام، فهي تمثل«الذروة المسنونة للموقف الشعري، تتحول فيه الكلمات إلى وضع ذاهل مُترسل تأخذ هيئة الشعر في تحديد الخطاب وتتنوع الدلالة وإطلاق سراح اللّغة من ســجن التقرير»[29].

ويَبدُو أن الشاعر لجأ إلى تكرار أدوات الاستفهام للتعبير «عن أغراض أخرى كثيرة منها التعجب والتقرير والإنكار»[30]، ويظهر هذا جليا في مــدح للسلطان العني بالله:[31]

مِنْ أَينَ للشّمسِ المُنيْرَةِ مَنطقٌ ببَيانِــهِ دُرُّ الكَــــلامِ يُفَصَّــلُ
مِنْ أَينَ للشّمس المُنيرَةِ رَاحَةٌ تَسْخُو إِذَا بَخِلَ الزّمَانُ المُمْحِلُ
مِنْ أَينَ للْبَدْرِ المُنِير شَمَائِــلٌ تَسْري بريّاهَا الصَّبا وَالشَّمأَلُ
مِنْ أَينَ للبَدْرِ المُنِير مَنَاقِــبٌ بِجِهَادِهَا تُنْضِيْ المَطيُّ الــزُّلَّلُ

ونَلحظ من خلال الأبيات أن ابن زمرك اعتمد تكرار اســم الاســتفهام" أين" المسبوق بحرف الجر لغرض التأكيد على سمو الممدوح وتفرده بصفات الجمال التي ذكرت، حيث ترك تكرار اسم الاستفهام نغما متواترا في الأبيات ساعد بشكل بارز على انسجام معمارها الفني، وشدّ انتباه المتلقي إلى صورة بارزة وظاهرة هي الممدوح، كما ســاهم فــي نقــل الأفكــار والمشــاعر والانفعالات، ممّا زاد في توضيح صورة السلطان الغني بالله وأعاننــا علــى تشكيلها في مخيلتنا وتصورها في أنفسنا.

ويواصل الشاعر مدحه للسلطان الغني بالله بوصفه من سلالة الأنصــار الذين أيّدوا النبي وساندوه في دعوته والجهر بها واســتقبلوه فــي مــدينتهم ومنحوه بيوتهم، عندما كان مطاردا مضطهدا من قريش، حيث يقول : [32]

مَنْ مُبْلِغ الأَنْصَارَ مِنهُ بَشَــارَة عَن البَشَائِر بَعْدَهَا تَسْتَرسلُ

مَنْ مُبْلِغ الأَذْوَاءَ من يُمنٍ وَهَمّ قَمَرا سَعدِ الْخَلِيْفَة يَكْمُــلُ

مَنْ مُبْلِغ قَحْطَانَ آسَادَ الشّرَى مَاْ غَابَها إلا الوَشِيْج الذْبــلُ

لعلّ الشاعر بمهارته التعبيرية وكفاءته الشعرية التي اتكأت على تكــرار اسم الاستفهام " من" استطاع أن يرتقي بممدوحه برفع نَسَبه إلــى الأنصــار الذين شرفوا بالدعوة والوقوف إلى الرسولﷺ وحق السلطان أن يفتخر بهــذا النسب، كما «أن للأنصار أن يفتخروا بحق لكون الغني بــالله هــو الخليفــة الفريد خير كل ما يتمناه الأنصار ليقوم مقامهم ويكون ممثلهم»[33].

وليس على الأنصار الفخر –في اعتقاد الشاعر–بل على ملوك اليَمَن أن يسعدوا بالخلافة التي أضحت بينهم بواسطة الغني بالله وكذلك قحطان، ومــن خلال تكرار اسم الاستفهام عَمّق الشاعر فكرة الأصل الشريف لســلطانه، إذ

جمع له كل المزايا والصفات والأمجاد والأصـــل لكـــي يؤهلـــه علـــى رأس الخلافة دون غيره من الناس، فالله – في نظر ابن زمرك– قد اختـــاره دون غيره في الأرض للخلافة منذ أمد بعيد، حيث يقول:(34)

إِمَام الهُدَى قَدْ خَصّه بِخَلافَةِ إِلَه فَيْ خُلْقِهِ النّهَي وَالأَمْرُ

من خلال الأبيات السابقة يتبيّن لنا أن الشاعر يعتمد بشكل واضح علـــى ظاهرة التكرار لغرض تعميق دلالاته وتوكيد معانيه المدحية، كمـــا يضـــفي على نظمه صفات صوتية من شأنها التأثير في مزاج المتلقي فتأســـره حينـــا وتبهره حينا آخر وهكذا تحدث المتعة والانتشاء بالأفكار والمعاني المتناســـلة من خلال زخم التعابير ووهج التراكيب.

وتَطَال التعابير التكرارية لشاعرنا الأدوات الاستفهامية الأخرى، فنجـــده يوظف اسم الاستفهام "كم" في مشهد تكراري غرضه إبداء الإعجاب والدهشة من دار الأمير أبي عبد الله شقيق السلطان الغني بالله، حيث يقول :

ولله مَبْنَـــاكَ الْجَمِيْـــل فَـــإِنّـــهُ يَفُوقُ عَلَى حُكْمِ السُـــعُود المَبَانِيّا
فَكَمْ فَيْه لِلأَبْصَار مِنْ مُتَنَـــزّه تَجِدُ بِهِ نَفْـــسُ الْحَلِيْـــمِ الأَمَانِـــيّا
وَكَمْ حُلّة جَلّلْتْـــــهُ بِحِلْيَـــتـــهَا مِنْ الوَشْيّ تُنْسِى السّامِرِي الْيَمَانِيّا
وَكَمْ مِنْ قَسيّ فِي ذُرَاهُ تَرَفَعَت عَلَى عُمَد بالنّور بَاتَتْ حَـــوَالِـــيّا
فَتَحْسَبُهَا الأَفْلاك دَارَت قَسَيّهَا تَظَل عَمُود الصُبْح إِذْ لاْحَ بَادِيّـــا

لعلّ التكرار في الأبيات السابقة قام بوظيفة التأكيد على إعجـــاب ابـــن زمرك وانبهاره بقصر الأمير من خلال تكرار "كم" ثلاث مرات في مطـــالع الأبيات، والتي دلّت على وجود جوانب فنّية وجمالية في القصر لا تتوافر في سواه من المباني، وهي عديدة وكثيرة بحيث يصعب الإلمام بهـــا وتعـــدَادُها،

لذلك وظّف الشاعر "كم" التي تُحيلنا على الاستفســـار عـــن العـــدد الكثيـــر، وغرضها هو إبداء الدهشة والإعجاب من القصر الجميل في مبناه ومعمـــاره وحلله.

5- تكـــرار العبـــارات:

بالإضافة إلى الأدوات التي اعتمد ابن زمرك تكرارها والتـــي حاولنـــا التطرق لها، كرر عبارات متنوعة هدف من خلالهـــا إلـــى تأكيـــد المعنـــى والتركيز عليه ومنها قوله:(35)

حَسْبُ الْخِلافَة أَنْ تَكُونَ وَلِيّـــهَا وَمُجِيْرهَا مِنْ كُلّ مَنْ يَتَخَـــيّلُ
حَسْبُ الزّمَان بِأَنْ تَكُونَ إمَامـــه فَلَـــهُ بِـــذَلكَ عزّة لا تَـــهْـــمَلُ
حَسْبَ الْمُلُوكِ بِأَنْ تَكُونَ عَمِيدهَا تَرْجُو النّدَى مِنْ رَاْحَتَيْك وَتَأْمَلُ
حَسْبُ الْمَعَالِيْ أَنْ تَكُوْنَ عِمَادهَا فَعَلَيْكَ أَطْنَابُ الْمَفَاخـــر تَسْـــدُلُ

يَبدُو من خلال الأبيات أن الشاعر اعتمد في بنائها على تكـــرار جملـــة ترددت في صدر الأبيات الأربعة وهي "حسب...بأن تكون "، وقد قامت هذه العبارة بكشف الولاء العميق الذي يكنّه الشاعر للسلطان الغني بـــالله، حيـــث جعله في مرتبة عالية ووصفه بأحسن الفضائل، فكان في نظره شخصية تعتز بها الخلافة وتفرح لها كونه وليّها وحاميها من الطامعين، و كما فرح الزّمان واعتز بأنّه إمامه وقائده، والملوك استبشرت بأنه عميدهم، فهم يرجون الخير من حكمك، والمعالي هو عمادها ورافعها لكونه أصل الجود والمفاخر، كـــل هذه المعاني مكّننا منها التكرار، وساعدتنا على كشف نفسية الشاعر المعجبة بالسلطان، فابن زمرك يُبدع في مدحه ويتأنق في أسلوبه وتعـــابيره، ليظفـــر بالصورة المتكاملة الجامعة المُعبرة عن حبه وولائه.

ولا يفارق شاعرنا أسلوب التكرار في مدحياته أو رثائياته أو توجعاتـــه، فيقـــول:[36]

أَمَوْلايَ لَوْ كَانَ الْفِدَاءُ مَسُوْغًا فَدَيْنَاكَ بِالْدُنْيَا جَمِيْعًا وَمَاْ فِيْهَاْ

يُبْدي ابن زمرك ألمه وحَسرته على مرض الغني بالله، ويســـعى جَهْـــدَهُ لأن يعود لسابق عهده، فهو مستعد أن يدفع لأجله النفس والنفيس لاســـترجاع عافيته وصحته، لكنه يعلم علم اليقين أن ذلك لن يتحقـــق، وقـــد أكّـــد هـــذه المعلومة بتكرار كلمة "الفداء" لدلالتها القوية وشدّة تأثيرها في نفسه وقيمتهـــا، موظفا همزة النداء للقريب ماديا ومعنويا "**أمولاي**"، مما يكشـــف عـــن ذات متأزمة متفجعة على مصابها حزينة على حبيبها الذي سيفارقها.

وفي الآن نفسه يّدرك الشاعر أن الفداء غير متاح ولا يقبـــل أبـــدا، وأن السلطان مُغادرٌ الدنيا مُخلفٌ له الأنين والحزن والوجع، والأسى لما ستأتيه به الأيام من حوادثها التي يتساءل بحسرة كيف سيواجهها وحيدا دون صـــديق، حيث يقول:[37]

وَقَدْ كَاْنَ ظَنّي أَنْ تَكُوْنَ جَنَازَتِيْ يُشَيّعُهَا مِنْكَ الرّضَا وَيُوَارِيْهَا

وَقَدْ عِشْتُ حَتّى ذُقْتُ فَقْدَكَ قَلّمَاْ تَبَلُّـــغ مَـــاْ تُرِيْدُ أَمَاْنِـــيْـــهَا

يبدو من خلال البيتين أنّ ابن زمرك اعتمد على تكرار حرف التحقيـــق" قد" الذي يفيد تحقق حالة عاشها الشاعر ويَطمح إليها وهي ملازمة ســـلطانه والعيش والموت معه، لكنه غادر مبكرا مخلفا إياه، فذاق فقده واكتوى بنـــار وفاته، فالتكرار يحيل على العلاقة المتينة المبنية على الحـــب والوفـــاء بـــين الشاعر والسلطان، فهي تنحو منحى تصاعديا متنزهة عن الدلالة المادية إلى الروحية، فالشاعر يحب السلطان لشخصه وصدقه وأخوته له لا لجاهه وماله.

خاتمـــة:

من خلال ما تقدم يتبيّن لنا أنّ الشاعر ابن زمرك شأنه شـــأن الشـــعراء الأندلسيين، مثلت الطبيعة لهم رافدا رئيسا للصور والأخيلة، ومعيناً لا ينضب لاستلهام المعاني والموضوعات، فاكتست قرائحهم بالرقة والعذوبة، فشاع في إبداعهم الوصف والمدح والفخر والخمريات، وسَخَرت القصائد جُلّ الآليـــات التي ترتقي بالأفكار وتتواصل مع المتلقي، فكان التكرار الـــذي تلونـــت بـــه قصائد ابن زمرك، حيث أغناها بالدلالة وأكسبها تأثيرا وزادها قوة وعمقا في المعنى، وساهم في بناء موسيقاها الداخلية وانتظام إيقاعهـــا، وأبعـــدها عـــن الرتابة والمَلَل، وجعلها تتفرد بالإيحاء والتأويل من خلال الألفـــاظ المكـــرّرة التي لا تقف عند مفهوم واحد بل تقبل العديد من القراءات، كما كشـــف لنـــا التكرار عن شخصية ابن زمرك المحبة للسلطان الغني بالله، فراح ينظم فـــي مدحه أجمل القوافي ويجمع في وصفه كل جميل من حدائق وبساتين قصـــر الحمراء وغرناطة، فأحسن التعبير والتصوير، وحاول أن يتعمق بالمتلقي إلى أعماق معانيه بواسطة التكرار الذي شمل جميع تراكيبه و تعابيره.

الهوامـــش:

[1]– نازك الملائكة: قضايا الشعر المعاصر، دار العلم للملايين، بيـــروت، 1996، ط 09، ص 276.

[2]–عز الدين السيد: التكرير بين المثير والتأثير، عالم الكتـــب، بيـــروت، 1996، ط 02، ص 42.

[3]– ينظر عبد الرحمن السيوطي: المزهر في علوم اللغة وأنواعها، ضبط وتصحيح محمد أحمد جاد المولى، دار إحياء الكتب العربية، بيروت، ج02، ص 332 .

[4]– ينظر: ابن رشيق، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقدهِ، تحقيق: محمد محيي الـــدين عبد الحميد، المكتبة التجارية الكبرى، مصر، 1964، ط03، ص 74.

[5]– فهد ناصر عاشور: التكرار في شعر محمود درويش، دار الفـــارس، الأردن، 2004، ط 01، ص 11.

[6]– نازك الملائكة: قضايا الشعر المعاصر، ص 263.

[7]– محمد بن أحمد وآخرون: البنية الإيقاعية في شعر المناصرة، منشورات اتحاد الكتاب الفلسطينيين، القدس، 1998، د ط، ص 83.

[8]– ينظر: الجاحظ: البيان والتبيين، تحقيق: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1968، ط 03، ص314 . وينظر: جمال الدين الخطيب القزويني: الإيضاح في علـــوم البلاغة، تحقيق: محمد عبد المنعم خفاجي، دار الكتاب اللبناني، بيروت، لبنـــان، 1975، ط4، ص 304.

[9]– محمد عبد المطلب: بناء الأسلوب في شعر الحداثة– التكوين البـــديعي–، دار الفكـــر، بيروت، 1988، د ط، ص 390.

[10]– حمدان حجاجي: حياة وآثار ابن زمرك شاعر الحمراء، طبع مشترك بـين ديـوان المطبوعات الجامعية والمؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1989، د ط، ص 28 .

[11]– نفسه، ص 57.

[12]– نفسه، ص 58.

[13]– فايز الداية: جماليات الأسلوب (علم المعاني)، منشورات جامعـة حلـب، سـورية، 1989، ص 55.

[14]– أبو الحجاج يوسف الأول المؤيد بالله االملك النصري السابع من أسرة بني نصر، يعد من أعظم ملوك بني نصر وأبعـدهم همـة وأرفعهـم مكانـة، ارتقـى العـرش سـنة 733هـ/1333م، عرف بالعلم والإحاطة بالفنون والعلوم وحفظ الشعر (ينظر: لسان الدين ابن الخطيب: اللمحة البدرية في تاريخ الدولـة النّصـرية، المطبعـة السـلفية، القـاهرة، 1347هـ، ص 89. والإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق: يوسف الطويـل، دار الكتـب العلمية، بيروت، 2003، ط01، ص 52.

[15]– محمد ابن زمرك، الديوان، تحقيق: محمد النيفر، دار الغـرب الإسـلامي، بيـروت، 1997، ط 01، ص 327 .

[16]– ينظر: بكري شيخ أمين: البلاغة العربية في ثوبها الجديد، ج2، ص 106.

[17]– هو محمد الخامس الملقب بالغني بالله أحد الأبناء الثلاثة لأبي الحجـاج، خلفـه فـي العرش، يعد من أعظم الملوك آنذاك، تميز بالخبرة والحنكة والذكاء، وامتلك ثقافة واسعة، واصل طريق والده في الحكم.(ينظر: لسان الدين ابن الخطيب: الإحاطـة فـي أخبـار غرناطة، ص 2–59).

[18]– ابن زمرك: الديوان، ص 96.

[19]– نفسه، ص 56.

[20]– حسام الخطيب وآخرون : اللغة العربية، منشورات جامعة حلـــب، ســـورية، 1985، ط02، ص77.

[21]– ينظر: عبد الله بوخلخال: التعبير الزمني عند النحاة العرب، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1987، ج 02 ، ص 159.

[22]– ابن زمرك: الديوان، ص 440

[23]– ينظر جمال الدين الخطيب القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة، ص183 .

[24]– ابن زمرك: الديوان، ص 48.

[25]– نفسه، ص 103.

[26]– عبد العزيز عتيق: تاريخ النقد الأدبي عند العرب، دار النهضـــة العربيـــة، بيـــروت، 1980، ط3، ص 96.

[27]– ينظر: حفيظة أرسلان شاسبوغ: الجملة الخبرية والجملة الطلبية، عالم الكتب، أربد، الأردن، 2004، ط1، ص 211.

[28]– فايز الداية: جماليات الأسلوب، ص97 .

[29]– صلاح فضل: نبرات الخطاب الشعري، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، 1989، د ط، ص 148.

[30]– ابن هشام الأنصاري: مغني اللبيب عن كتب الأعاريـــب، تحقيـــق: مـــازن المبـــارك وآخرون، دمشق، 1972، ص 24.

[31]– ابن زمرك: الديوان، ص 99 –100.

[32]– نفسه، ص 82.

[33]– حمدان حجاجي: حياة وآثار ابن زمرك شاعر الحمراء، ص 84.

[34]– ابن زمرك: الديوان، ص 121.

[35]– نفسه، ص 54.

[36]– نفسه، ص 143.

[37]– نفسه، ص 75.